مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ١: ١٠–١٤؛ ٢: ١–٣)

أنتَ يا ربُّ في البدءِ أسَّستَ الأرضَ والسمواتُ هي صُنعُ يدَيْكَ* وهي تزولُ وأنتَ تبقى وكلُّها تَبلى كالثوبِ* وتَطويها كالرداءِ فتتغيَّرُ وأنتَ أنتَ وسنوكَ لن تَفنى* ولِمَنْ من الملائكةِ قالَ قطُّ اجلِسْ عن يميني حتى أجعلَ أعداءَكَ موطِئاً لقدَمَيْكَ* أليسوا جميعُهم أرواحاً خادِمةً تُرْسَلُ للخدمةِ من أجلِ الذينَ سيرِثونَ الخلاص* فلذلك يجبُ علينا أن نُصغيَ إلى ما سمِعناهُ إصغاءً أشدَّ لئلاَّ يسرَبَ من أذهاننا* فإنَّها إن كانتِ الكلِمةُ التي نُطِقَ بها على ألسِنةِ ملائكةٍ قد ثبَتت وكلُّ تعدٍّ ومعصيَةٍ نالَ جزاءً عدلاً* فكيفَ نُفلِتُ نحنُ إن أهمَلنا خلاصاً عظيماً كهذا قد نُطِقَ به على لسان الربِّ أولاً ثمَّ ثبَّتَهُ لنا الذينَ سمِعوه.

مَن يغفر الخطايا

حادثة شفاء الكسيح إعلانٌ صريح عن ألوهة المسيح. لقد دلّى أربعة رجال من سقف البيت رجلاً ملقى على سرير، عاجزاً عن الوقوف، ووضعوه أمام الرب يسوع آملين أن يمنحه الشفاء. أمام مشهد إيمان الكسيح وحامليه، أعلن الربُّ لمن قُدّم إليه أن خطاياه قد غُفرت. مباشرةً أتى الردُّ ممن يتمسّكون بحرفية الكتاب ولا يستلهمون روح مَن أوحى بالكتاب: «مَن يقدر أن يغفر الخطايا إلاّ الله وحده؟» هذا الكلام الذي افتكر فيه الكتبة صحيحٌ من الناحية المبدئية، ولكن خطأهم كان في أنهم لم يعرفوا حقيقة الإله المتجسّد.

لقد قال الرب على لسان أشعياء النبي: «أنا أنا هو الماحي ذنوبكَ لأجلِ نفسي وخطاياك لا أذكُرها» (أش ٤٣: ٢٥). كذلك تنبأ إرمياء النبي عن غفران الله قائلاً: «في تلك الأيام وفي ذلك الزمان يقول الربُّ: يُطلَبُ إثمُ إسرائيلَ فلا يكونُ، وخطيئةُ يهوذا فلا توجَدُ، لأنّي أغفر لِمن أُبقيه» (إر ٥٠: ٢٠). أما داود النبي فأظهر من خلال مزاميره أن كلَّ خطيئة هي موجهة بالأساس نحو الله: «إليك وحدك أخطأت والشرَّ قدامك صنعت» (مز ٥٠: ٤)، وأن الاغتفار يأتي من عند الله: «إن كنت للآثام راصداً يا رب يا رب مَن يثبت، لأن من عندك هو الاغتفار» (مز ١٣٠: ٤–٥).

العدد ٢٠١١/١٢
الأحد ٢٠ آذار
الأحد الثاني من الصوم
(أحد القديس غريغوريوس بالاماس)
تذكار آبائنا الأبرار المقتولين في دير القديس سابا
اللحن الثاني
إنجيل السَحَر العاشر

الله وحده يغفر خطايا الإنسان. يقول القديس إيريناوس: «لا يمكن أن تُغفر الخطايا بحق ما لم يَمنح المسامحة من ارتُكبت بحقه الخطايا». الله هو مصدر حياة الإنسان وقد أوجده بدافع محبته وحدّد له غاية للوجود: «الاتحاد بالله». لذلك تُعتبر كلّ خطيئة وكلّ أمر يبعدنا عن تحقيق هذه الغاية إساءة لصاحب الوديعة. الله يعطينا الحياة كوديعة من دون مقابل ويترك لنا ملء الحرية للتصرّف كما نشاء، لكنه ينتظر منا أن نتمم مشيئته لمنفعتنا نحن. واجب على كلّ إنسان أن يعي ما هو هدف حياتنا المشترك، فيهيء نفسه مسكناً لله الذي يحلّ فيه بنعم الروح القدس

الإنجيل

(مرقس ٢: ١-١٢)

في ذلك الزمان دخل يسوعُ كَفَرْناحومَ وسُمع أنَّه في بيتٍ* فللوقت اجتمعَ كثيرون حتى إنَّه لم يعُدْ موضعٌ ولا ما حولَ الباب يَسَعُ وكان يخاطبهم بالكلمة* فأتوا إليهِ بمخلَّعٍ يحمِلهُ أربعةٌ* وإذ لم يقدروا أن يقتربوا إليه لسبب الجمع كشفوا السقفَ حيث كان. وبعد ما نَقَبوهُ دلَّوا السريرَ الذي كان المخلَّعُ مضطجعاً عليهِ* فلمَّا رأى يسوعُ إيمانَهم قال للمخلَّعِ يا بُنيَّ مغفورةٌ لك خطاياك* وكان قومٌ مِنَ الكتبةِ جالسين هناك يفكّرون في قلوبِهِمْ ما بالُ هذا يتكلَّمُ هكذا بالتجديف. مَن يقدِر أنْ يغفِرَ الخطايا إلاَّ اللهُ وحدَهُ* فللوقت علمَ يسوعُ بروحِه أنَّهم يفكِّرون هكذا في أنفسِهم فقال لهم لماذا تفكّرون بهذا في قلوبكم* ما الأيسرُ أن يُقالَ مغفورةٌ لك خطاياك أم أنْ يُقالَ قُمْ واحمِلْ سريرَك وامشِ* ولكن لكي تعلَموا أنَّ ابنَ البشر لهُ سلطانٌ على الأرض أن يغفِرَ الخطايا قال للمخلَّع* لك أقول قُمْ واحمِلْ سريرَك واذهب إ لى بيتك* فقام للوقتِ وحمَلَ سريرَهُ وخرجَ أمامَ الجميعِ حتى دهِشَ

ويقدّسه. كما أن الله خلق السموات والأرض للإنسان الذي يسكنها، خلق جسد الإنسان ونفسه لكي يكونان مسكناً لله، كما يقول الرسول بولس: «وبيته نحن» (عب ٣: ٦).

بعد أن كشف الرب أفكار الكتبة، والله وحده يعرف سرائر الناس: «لأنك أنت وحدك قد عرفت قلوب كلّ بني البشر» (١ مل ٨: ٣٩)، أوضح لهم بنوّته للآب من خلال سلطان غفران الخطايا الذي يتمتع به والذي أكّده بعجيبة شفاء المخلّع. في موضعٍ آخر، طلب يسوع من كلّ المؤمنين به أن يغفروا للناس زلاّتهم (متى ٦: ١٤). هذه دعوة إلى التسامح بين البشر على الأرض. ولكن سبق أن أوضحنا أن كل خطيئة هي إساءة لله ولا يغفرها إلاّ الله وحده. هذا الأمر اختلف نوعاً ما مع تجسّد كلمة الله، إذ الرب نفسه أشرك رسله في سلطانه عندما أعطاهم نعمة خاصة ليغفروا خطايا البشر، لا بسلطتهم الذاتية كما فعل هو، بل بسلطان ابن الله ومن خلال الروح القدس الساكن فيهم: «إقبلوا الروح القدس، مَن غفرتم خطاياه تُغفر له، ومن أمسكتم خطاياه أُمسكَت» (يو ٢٠: ٢٢-٢٣). هذا ما كان أعلنه سابقاً لبطرس الرسول حين منحه سلطان حل الخطايا وربطها وبالتالي سلطان الإدخال إلى ملكوت السموات: «كلّ ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات، وكلُّ ما تحلُّه على الأرض يكون محلولاً في السموات» (متى ١٦: ١٩).

في حياته على الأرض، أسس الرب كنيسة يشكّلها كلّ المؤمنين به، وتكون هي جسده وهو رأسها، ثم أوكل إلى رسله الأطهار العناية بها. هؤلاء بدورهم وضعوا الأيدي على أساقفة ومنحوهم الروح القدس ليتمموا الأسرار الإلهية ومنها سر التوبة والإعتراف، فنالوا من الرسل ما تلقوه هم من المسيح، أعني سلطان ترك الذنوب وربطها. من جهتهم، شرطن الأساقفة آباء روحيين منتَدَبين بوضع الأيدي أيضاً لمساعدتهم في خدمة الأسرار. هكذا حصل أساقفة الكنيسة وآباؤها على نعمة الروح القدس حين سيامتهم ليحلوا أو يربطوا الخطايا باسم الآب والإبن والروح القدس. في أيامنا هذه، نلاحظ أن كثيرين ما عادوا يمارسون سر الإعتراف حارمين أنفسهم من العلاج الذي تقدّمه الكنيسة لمرض الخطيئة الذي نعاني منه كلّنا. في المقابل اعتاد بعض الناس أن يطلبوا من الكهنة الصلاة على رأسهم لينالوا الحل من خطاياهم دون أن يعترفوا بها، وفي هذا خطر كبير على المعترف وعلى الكاهن. على الأب المؤتمن على خدمة الأسرار، وبشكل خاص على حلّ الخطايا أو ربطها، أن لا يحلّ المعترف من خطاياه دون أن يعرف ماهيّتها. الأب الروحي هو طبيب يعالج المريض بعد أن يفحصه ليعرف ما هو مرضه. إن صلاة الحل بدون اعتراف هي محاولة لتهدئة الضمير، مسكّنٌ للألم وليست دواءً يشفي المريض.

كلُّهم ومجَّدوا اللهَ قائلين ما رأينا مثلَ هذا قطُّ.

تأمل

لا يعاقب الله عادةً الجميع معاً، الذين يستحقّون العقاب نفسه، بل القليل منهم فقط، بحيث أنّ الباقين عندما يرون مصائب أولئك يتوبون ويصطلحون. وأحياناً، يعاقبهم جميعاً كما حدث في الطوفان العظيم، من جهة لكي يمنع الخطأة من ارتكاب خطايا أكثر، ومن جهة أخرى لكي يستفيد الذين بعدهم وينجوا من مثال معلّمي المعصية السيء، لأنه طالما أنّ الناس يرتكبون معاصي كثيرة من دون عبرة، فماذا لن يفعلوا لو وُجد كثيرون يدفعونهم نحو أعمالٍ خاطئة؟

إذاً، لنكن متأكّدين من أنّ الله يدبّر كلّ شيء لمنفعتنا فقط. دعنا لا نسأل عن الطريقة التي يدبّر بها، ولا نتكدّر ونحزن لأننا نجهلها. لا يمكن أن نعرف مثل هذه الأشياء، كما أنّ ذلك لا يوافق لأننا مائتون ولأننا سنصل بسرعة إلى الجنون. يريد الله أن يتوب ويخلص حتى أولئك الذين لا يؤمنون به. هو نفسه يقول: «لم آتِ لأدعو أبراراً بل خطأة» (متى ٩: ١٣)، وحتى عندما لا يريدون

الله طبيب كليّ القدرة، والدواء الذي يعطيه أيضاً كليّ القدرة، فهو لا يعصى عليه أي مرض ويشفي خطيئة التائب مهما بدت عظيمة. بعد أن أتاح لنا طبيب النفوس والأجساد أن ننال أدويته الروحية على ايدي خدّامه الأساقفة والآباء، وبما أننا نعبر في ميدان الصوم الذي يهدف إلى التحرر من الأهواء، لا يجوز أن نحرم أنفسنا من شفائه المجاني الذي يساهم في خلاصنا.

نحن والكاهن

إذا قرأنا سيرة القديس غريغوريوس بالاماس، تستوقفنا الفترة التي كان فيها كاهناً قبل أن يصبح رئيساً لأساقفة تسالونيكي اليونانية. سيرة هذا القديس تصفه بأجمل الصفات ككاهن، ومن هذه الطريقة الوصفيّة للقديس غريغوريوس أو لغيره من القديسين الكهنة، يمكننا أن نستنتج كم كان الناس يحترمون هذه الرتبة حتى ان بعضهم يسمّونها بالرتبة الملائكية.

ننادي الكاهن «أبونا». الكاهن هو أبٌ يلدُنا بالروح، وإكرامه واجبٌ علينا، ومن الممكن أن تسري عليه وصيّة الإكرام «أكرم أباك وأمك» (خر ٢٠: ١٢). إلاّ أنّنا نصادف الكثيرين في أيّامنا هذه ممّن لا يحبّون الكهنة ولا يحترمونهم ويقومون بإدانتهم على الدوام قائلين: «إسمعوا أقوالهم ولا تفعلوا أفعالهم».

تختلف صفات الكهنة من واحد إلى آخر، إذ نجد البسيط والمثقّف والمتعلّم وغير المتعلّم... لكنّ صفةً واحدة تجمعهم جميعاً هي محبّة المسيح وقطيعه. والكلام الذي يُقال عن الكهنة في أيّامنا هذه هو كلام دينونةٍ لا ينفع ولا يبني أحداً من قائليه أو المستهدفين منه، وبه نكون وضعنا أنفسنا مكان الله، القاضي العادل، الذي سيدين الكلّ حسب أعمالهم، وبه أيضاً نكون قد خالفنا إحدى أهمّ وصايا ربنا: «لا تدينوا كي لا تُدانوا». إذا قمنا بإدانة الكاهن على كلّ أمرٍ يقوم به من دون أن نعرف خلفيّة هذه الأمور، فمن المؤكّد أنّ دينونتنا ستكون أعظم إذ سنكون ظالمين إيّاه في غالبيّة الأحيان.

ثمّة قصة قصيرة من سِيَر آبائنا الشيوخ القديسين تُخبرنا عن راهب تعثّر بسبب أحد الكهنة ولم يُرِد أن يتناول القدسات من يده، فذهب ليعترف مخبراً أباه الروحي عن مشكلته. أجاب الأب الروحي الراهب بأنّه سيذهب معه صباحاً وسيختبئان قرب باب الكنيسة بحيث يستطيعان رؤية الكاهن داخلاً الكنيسة من دون أن يراهما هو. هكذا حصل، وقد تفاجأ الراهب عندما شاهد الكاهن آتياً وعلى كتفه شيطانٌ. إلاّ أنّ المفاجأة الأكبر كانت إذ قفز الشيطان ليستقرّ عند عتبة الباب العُليا من دون أن يدخل مع الكاهن. بعد دخول الكاهن أخذ الأب الروحي الراهب إلى الكنيسة فشاهدا الكاهن يخدم القداس الإلهي محاطاً بنورٍ عظيم. بعد ذلك عاد الإثنان إلى مخبئهما ليشاهدا الكاهن خارجاً، فتفاجأ الراهب بعودة الشيطان ليستقرّ على كتف الكاهن.

إصلاح حالهم ومعرفة الحقيقة، فإنه لا يتركهم، مع أنهم بإرادتهم يحرمون أنفسهم من الحياة السماوية، يمنحهم الله كلّ الأشياء الضرورية للحياة الأرضية، مشرقاً شمسه على الأشرار والأبرار ومرسلاً المطر للأبرار والظالمين، واهباً الجميع كل ما يحتاجون إليه للعيش. إذاً، إذ يبدي الله اهتماماً كبيراً بأعدائه، كيف سيغفل عن أولئك الذين يحبونه ويتبعونه؟

هكذا عندما نرى اختلالاً واضطراباً وتعسّفات ظاهرية، علينا ألا نشتكي على الله لأنه لا يحدث أمر في الحياة الحاضرة من دون عنايته. في الحقيقة إنّ الإختلال والاضطراب يوجدان ليس في الأحداث الخارجية بل في تفكيرنا؛ بقدر ما يبقى هو مضطرباً بالأهواء، فإنه لن يرى أبداً نظاماً وانسجاماً، كالعيون عندما تكون مريضة ترى كل شيء مظلماً حتى في منتصف النهار، بينما عندما تكون معافاة تقود الجسد بوضوح حتى في الليل، وهكذا ذهننا عندما يكون معافًى يرى كل شيء صالحاً ولكن عندما يكون مريضاً، ولو قُدته إلى السماء، يجد اختلالاً واضطراباً.

القديس يوحنا الذهبي الفم

تفيدنا هذه القصة بأنّ الكاهن إنسانٌ كباقي الناس، إلاّ أنّه حاصِلٌ على نعمة عظيمة تقهر الشياطين، وهي نعمة الكهنوت الممنوحة له بواسطة الروح القدس، والتي بها يستطيع أن يخدم جميع الأسرار وأهمّها تحويل الخبز والخمر إلى جسد الرب ودمه. «كهنوت النعمة»، بحسب شهادة القديس يوحنا الذهبي الفم، لا يحلّ محلّ عرش الأنبياء ورؤساء الآباء كما كان في كهنوت العهد القديم. ولكن هنا، على هذا العرش، يجلس المسيح الإله، مؤسّس هذا السر نفسه. لهذا، فإنّ مَن يُهِن كاهن ناموس النعمة أو يشتمه، يُهِن المسيح إلهنا نفسَه ويشتمه.

في الكثير من الأحيان نسمع الأقاويل عن الكهنة، أو حتى نشاهد كهنةً يتعرَّضون للإهانة علانيةً، والمؤسف أنّ الذين يبثّون الأقاويل والإهانات هم غالباً من الملتزمين كنسيًّا أو العاملين في الحقل الكنسي، ويظن بعضهم أنّهم إذا قاموا بخدمةٍ في الكنيسة أصبح من حقّهم أن يعتبروا الكاهن والكنيسة مدينَين لهم ويستطيعون أن يتصرّفوا معهما كما يشاؤون. إنّ الكاهن خادمٌ فعلاً، لكنّه يخدم الجميع بدافع المحبّة: محبّة الله الخالق، ومحبّة البشر المخلوقين على صورة الله ومثاله، لذلك لا يحابي الوجوه ولا يهتم بالغنيِّ أكثر من الفقير... الكاهن يرى الله في وجوه كلّ الناس.

ربما سيقول بعض مَن يقرأ ما كُتِبَ ويُكتَب عن الكهنة إنّه دفاعٌ لا بدَّ منه لتبييض صورة الكهنة، إلاّ أنّهم يقعون في خطيئة الإدانة. بدلاً من إدانة الكاهن علينا أن نساعده كي يتمّم عمله المؤتَمَن عليه والذي سيُسأل عنه في يوم الدينونة العادلة حيث سيُدان عن كلّ ما فعله لإيصال خراف حظيرة رعيّته إلى الله. نقول في صلواتنا: «باسم الرب بارك أيها الأب القديس»، وبهذه العبارة نقوم بتذكير الأب الكاهن بأنّه يحمل نعمةً عُظمى إذ إنّه يباركُنا باسم الرب، أي كأنّ الرب نفسه هو الذي يباركنا، كما نذكّره بأنّ عليه أن يكون قديساً وعلى قدر المسؤوليّة المُلقاة على عاتقه. إذاً، في النهاية، بدلاً من قذف الكاهن بالكلام البطّال، فلنَعمل على مساعدته في الوصول إلى القداسة وتالياً نصل نحن بدورنا إليها مقتدين به.

بشارة والدة الإله

بمناسبة عيد بشارة سيدتنا والدة الإله الكليَّة القداسة يترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس خدمة صلاة الغروب عند السادسة من مساء الخميس ٢٤ آذار ٢٠١١ وخدمة القداس الإلهي عند التاسعة والنصف من صباح الجمعة ٢٥ آذار ٢٠١١ في كنيسة بشارة السيدة في الأشرفية. وسوف تتم خلال القداس رسامة الأخ وائل ناصيف شماساً إنجيلياً.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb